تجربة الطاهر وطار الروائية في بعديها الإيديولوجي و الاجتماعي

د. صالح جديد
جامعة الشاذلي بن جديد الطارف

الملخص:

تقارب هذه الدراسة التجربة الروائية عند الطاهر وطار في بعديها المتداخلين والمتكاملين؛ البعد الأول يتجلى في الجانب الإيديولوجي وبخاصة في فلسفته المرتبطة بمبادئ الواقعية الاشتراكية، والبعد الثاني يتمثل في الجانب الاجتماعي من المنجز الروائي الوطاري، على اعتبار أنه الجزء المكمل والمجسد للبعد الإيديولوجي.

الكلمات المفاتيح: الطاهر وطار، البعد الإيديولوجي، البعد الاجتماعي، المنجز الروائي، الواقعية الاشتراكية.

Summary

The convergence of this study the novelistic experience when Al-Taher Watar in the interlocking dimensions the integrated and coordinated implementation; the first dimension is reflected in the ideological side especially in philosophy, associated with the principles of the socialist realism, the second dimension is the social side of done Al- Watari novelist, as part supplementing embodied the ideological dimension.

Keywords: Tahar wattar, ideological dimension, the social dimension, the accomplished novelist, socialist realism

المدخل :

لا تقف عبقرية وعالمية المبدع في المواضيع التي يعالجها لوحدها، وإنما تكمن كذلك في ارتباطاته – التزاماته – الأيديولوجية والاجتماعية، فما معنى الأدب إذا كان لا يحمل هموم وطموحات المجتمع، وكلمة المجتمع لا نحددها في مفهومها الضيق الخاص بالعرق والجنس والحيز الجغرافي، وإنما نعني بها في مطلقها لتشمل الإنسانية جمعاء، وليس بعيدا عن هذه الرؤية نعتقد أن الراحل الطاهر وطار حقق بعده الإنساني من خلال تجاوز نصوصه الأدبية للأيديولوجيا بمفهومها الضيق الرافض للآخر، ولتعبيرها عن هموم الإنسانية من خلال نموذج الفرد الجزائري الحامل لجينات الإنسانية أينما كان مكانها وزمانها.

إن الأدب الذي ينفصل عن واقع مجتمعه وعن هويته وفق منظور الواقعية الاشتراكية وغيرها من المناهج والمدارس والتيارات والأيديولوجيات التي تعقد أمر التطور والتقدم والمتانة الاجتماعية على الكلمة والإبداع عموما والأدب خصوصا، هو ليس إلا مجرد كلمات سرعان ما تذهب مع هدير الأصوات الصاخبة والضجيج اليومي، ومن هنا كان الأدب عندهم وسيلة نضال وتعبير وتغيير، وسيلة بها تبنى المجتمعات ويحصن الفرد، وكلما كان النص الأدبي شعرا ونثرا محققا لتلك الرسائل كلما اتجه نحو العالمية؛ لأن أمر العالمية لا يكمن في أن تتحاشى واقعك ومجتمعك وقضاياه المتعددة والمتشابكة لتعبر عن أقوام آخرين بينك وبينهم سواء أبعدت الشقة أم قربت، فالآخر يعلي من أدبك إذا وجده معبرا عن الإنسانية من خلال نماذج مجتمعك، لن الهم الإنساني في هذا الوجود يكاد يكون واحدا إن لم يكن كذلك فعلا.

ونحن نقرا بعض روايات الروائي الجزائري الراحل(الطاهر وطار) وجدناه ينحو نحو العالمية بخطى ثابتة راسخة، متخذا في ذلك من الحياة الجزائرية ببساطتها وتعقيداتها ميدانا لأدبه ووسيلة للتعبير عن القضايا التي يشاركه همومها وأحلامها، حياة سجلها في مشروعه الروائي الذي أرخ له بحياة الجزائر الرافضة للمستعمر الفرنسي والمكافحة من أجل حريتها، وتغلل به – المشروع الروائي – في تلافيف الحياة اليومية لجزائر الاستقلال والتعددية، مسجلا لنا التحولات التي طرأت على حياة الجزائري سلوكا وممارسة،وللتقرب أكثر من عالمية أدب الطاهر وطار ارتأينا أن نقدم هذه الورقة البحثية من خلال العناصر التالية :

1– علاقة الأدب بالأيديولوجيا :

الأيديولوجيا idealogie مصطلح غربي مشكل من لفظتين : لفظة إيديا : idea الدالة على الفكرة \ الموضوع ، ولفظة لوجيا : logie الدالة على العلم والمعرفة ، ليدل المصطلح مركبا على علم الأفكار ، وقد وردت عدة تعريفات نذكر منها على سبيل التوضيح تعريف (تيري إيجلتون) القائل بأن " الأيديولوجية ليست مجرد انعكاس بسيط لأفكار الطبقة الحاكمة؛ إنها على النقيض من ذلك ظاهرة معقدة دوما قد تدمج رؤيات للعالم متصارعة ومتناقضة، ولنفهم الأيديولوجية ينبغي أن نحلل العلاقات الدقيقة التي تربط الطبقات المختلفة في المجتمع، وهذا يعني إن نحدد بالضبط علاقة هذه الطبقات بصيغة الإنتاج"[1]، وهي أيضا :" الأيديولوجيا: العملية المادية العامة لإنتاج الأفكار والمعتقدات والقيم في الحياة الاجتماعية .الأفكار والمعتقدات صادقة كانت أو زائفة التي ترمز لأحوال وخبرات حياة مجموعة أو طبقة محدودة ذات أهمية اجتماعية."[2]، أما عند علماء الاجتماع فيقدمون

تعريفين: واحد خاص والآخر عام؛ ففي المعنى الخاص الأيديولوجيا هي: منظومة الأفكار التي تتجلى في كتابات مؤلف ما تعكس نظرته لنفسه وللآخرين بشكل مدرك أو غير مدرك. وهي في المعنى العام تعني: منظومة الأفكار العامة السائدة في المجتمع.
والأيديولوجيا تعرف أيضا على أنها: " تشير إلى الطرائق التي يحيا بها البشر أدوارهم في المجتمع الطبقي، وإلى القيم والأفكار والصور التي تربطهم بوظائفهم الاجتماعية وتمنعهم من المعرفة الحقيقية لمجتمعهم ككل "[3].

إن مسألة تحري العلاقة التي تربط أو تجمع الأدب بالأيديولوجيا ليست حديثة العهد ، كما أنها ليست من مبتذل الجهد ، وبخاصة في عالم الأيديولوجيا المتغير والأدب الباحث دوما عن التغيير والتميز، فالعلاقة إن صح القول وطيدة وقديمة تأخذ أحيانا بعدا تصادميا وأحيانا أخرى بعدا تواصليا أو انفصاليا، فالأيديولوجيا بصورة عامة هي علم الأفكار؛ تلك المفاهيم الاجتماعية والفلسفية والتصورات التي تعبر عن موقف محدد تجاه علاقة الإنسان بالإنسان وبالمحيط الطبيعي وغير الطبيعي ...الخ، فبين هذه العلاقات المتغيرة تمتد وتضيق رقعة الأدب بحسب قربها من مصادر القرار وبخاصة السياسي، ففي الدول التي تبنت الاشتراكية منهجا سياسيا واقتصاديا وأيديولوجيا مثلا تعاملت مع الأدب تعاملا حذرا فبقدر احترامه وتبنيه لأطروحات الاشتراكية والعمل على نشرها والدعوة إليها بقدر ما كان الإشهار له وتقديمه على بقية الآداب الأخرى بغض النظر عن المستوى الفني والتشكيلي وحتى الدلالي،والأمر ذاته بالنسبة للدول التي تبنت الرأسمالية، ولكن هل الأدب الأيديولوجي لا يشتمل على الجمالية والفنية ؟ الإجابة عن هذا السؤال تختلف بحسب زوايا الرؤية لكل واحد منا، ولكننا قد نتفق على الأقل بأن النص الأدبي هو وحدة متكاملة هو موضوعي وذاتي، فني جمالي، وأيديولوجي التزامي، ولعل أول من أثار هذا السؤال هو الشاعر والناقد (صموئيل تيلور كوليردج 1772-1834) عندما قال بأن الأدب هو نقد الحياة، وبهذا يكون تمسك المبدع في نصه بأفكار أو أخلاق ما هو نوع من الدعوة إلى أيديولوجيا ومحاولة تقديمها كبديل عن السائد أو تدعيم وتثبيت له، وبنظرة خاطفة وسريعة في تاريخ الأدب ومذاهبه نجد أن كل أيديولوجيا سادت فترة ما أو مكان ما أنتجت أدبا جديدا فالنظم الإقطاعية القائمة على أيديولوجيا الفكر اليوناني الكلاسيكي القائل بالطبقية الاجتماعية القائمة على أسس الأصل والجنس والجاه والسلطان أنتجت لنا ما عرف بالأدب الكلاسيكي المضبوط بقوانين وقواعد لا يمكن التساهل معها مهما كانت صفة المبدع، بينما أنتجت لنا البرجوازية ذات الأيديولوجيا المؤمنة بالفرد المنتج لذاته من غير النظر لأصله أو طبقته أو جاهه ونسبه ، أدبا رومانسيا ، كما أنتجت الأيديولوجيا الاشتراكية أدبا عرف بالأدب الواقعي وبالأحرى الواقعية الاشتراكية...وهكذا مع بقية المذاهب الأدبية الكبرى، فالعلاقة إذن بين الأدب والأيديولوجيا علاقة حميمية منتجة وعلى قول (سارتر) بأن كل قول ينطوي على موقف، ومع ذلك يبقى المبدع المؤدلج مهووسا بفنية أدبه لأنه يحاول أن يجسد رؤية من المجتمع والعالم، رؤية تعكس فلسفة الأيديولوجيا في نسيج فني لا يتفطن لها إلا من خبر الأمر.

ولقد فصل (تيري إيجلتون) في علاقة الأدب بالأيديولوجيا في كتابيه (الماركسية والنقد الأدبي) و(النقد والأيديولوجية) ونحن هنا نختار بعض النصوص التي بينت تلك العلاقة المتشابكة والمتداخلة " إن الأدب عالق بشبكة الأيديولوجية، ولكنه يعمل في الوقت نفسه على تبعيد نفسه عنها إلى درجة ندرك فيها منابع الأيديولوجية التي يصدر عنها"[4]، ونظرا لن العلاقة بين الأدب والأيديولوجيا متداخلة وبما أن الأدب يدخل في حقل الأيديولوجيا فإنه من الصعوبة بمكان الفصل بينهما أو تجريد واحد من الآخر " يمكن أن نحس بحضور بالأيديولوجية في لحظات صمت النص الدالة، وفي فجواته وغياباته، وينبغي على الناقد أن يجعل لحظات

الصمت هذه تتكلم"[5]، وهنا نجد أن(أنجلز) يعطي للناقد المقدرة على تفكيك وتبيين تلك العلاقة الوطيدة والمتداخلة، ويذهب إلى تحديد تلك العلاقة بقوله: " التطورات الدالة في الشكل الأدبي تنتج عن التحولات الدالة في الأيديولوجية"[6]، غير أن تلك العلاقة المتداخلة لا تعني ذوبان الأدب في الأيديولوجيا، بل له حدوده الفاصلة والمقيمة لكينونته المستقلة " إن الشكل الأدبي كما يذكرنا تروتسكي يمتلك درجة عالية من الاستقلالية، إنه يتطور بصورة جزئية وفقا لضغوطات داخلية خاصة ولا ينحني لأية ريح أيديولوجية تهب"[7].

إن الأدب الجزائري لم يكن في لحظة من لحظات وجوده وتطوره بعيدا عن الحركية الفكرية العالمية، فقد احتضن الأيديولوجيات منذ –فترة الاستعمار الفرنسي ومرحلة الثورة التحريرية والاستقلال وهنا نقصد ونحدد الأدب الجزائري الحديث لأن مسألة بحث الأيديولوجيا بالأدب الجزائري القديم معقدة وتحتاج إلى جهد أكثر وأوسع من هذا العمل–، وتابع البحث في تأريخ الأدب الجزائري تلك الأيديولوجيات المتعاقبة عليه من خلال أهم قضايا الأيديولوجيا ارتباطا بالأدب ممثلة في قضية اللغة؛ أي مسألة الهوية للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية أو بغير اللغة العربية، وقضية الموقف من الاستعمار الفرنسي، والالتزام بقضايا الثورة والاستقلال، وقضية الحرية، والطبقية في المجتمع من خلال تقسيمه إلى طبقتين اجتماعيتين؛ طبقة الريف وطبقة المدينة، ومسألة الأدب الجزائري المكتوب في المهجر ...الخ، وغيرها من القضايا التي عالجها الأدب الجزائري وفق منظور أيديولوجي لمبدعيه، وللكشف عن خبايا تلك القضايا وجب علينا تداول علاقة الأدب بالمجتمع، من حيث هما في علاقة تواصل وتلازم، علاقة تحكمها ثنائية متبادلة ما بين المنتج والمستهلك، الطلب والاستجابة.

2– علاقة الأدب بالمجتمع :

ليس من الحكمة أن يتطرق الدارس للأدب مفهوما أو تاريخا أو أشكالا وأجناسا من غير أن يكتب عن علاقة الأدب بالمجتمع، فلا يعقل أن يوجد الأدب في غياب المجتمع أو أن يوجد مجتمع من غير أدب ، ولما كان الأمر من باب المستحيل فإن العلاقة بينهما متداخلة إذ أن الأدب كما جاء في الفصل التاسع من كتاب نظرية الأدب لرينيه ويليك وأوستن وارين وترجمة محي الدين صبحي ومراجعة حسام الخطيب: بأنه مؤسسة اجتماعية أداته اللغة وهي من خلق المجتمع، والوسائل الأدبية التقليدية كالرمزية والعروض اجتماعية في صميم طبيعتها، إنها أعراف وأصول لا يمكن أن تبزغ إلا في مجتمع.

هكذا هو الأدب وعلاقته بالمجتمع كل منهما ينتج الآخر؛ فالأديب يعيش في مجتمع يتنسم نفحاته وجراحاته يجتهد في نقل مكنوناته ورسم صورة غده المشرقة، ولما كان النص الأدبي الجيد هو جسر التواصل بين أفراد المجتمع وخيط الربط بينهم لقي الأديب منه — المجتمع– كل صور التعاطف والتبجيل والتقدير والتقديم، حتى أنه في الجاهلية كانت العرب تحتفي بظهور ونبوغ شاعر أو خطيب، فيرفعوا من قدره حتى يصل في بعض القبائل بمنزلة سيد القبيلة،كم أن القبائل التي لم يطهر فيها شعراء انتحلت أشعارا واختلقت أسماء لشعراء، كل هذا لإدراكهم أهمية وسلطة الكلمة بين القبائل، كما ينم عن اعتقادهم الراسخ في بقاء وخلود ذكر من كان لهم أدبا يخلد أيامهم ويذكر أمجادهم، ولقد استمرت مكانة الأديب والأدب في المجتمعات محل اهتمام وتقدير مع اختلاف المجتمعات والفترات التي مرا بها، ويبقى النقد الماركسي الأكثر اشتغالا على النزعة والوظيفة الاجتماعية للأدب، كما أنه ليس من السهولة بمكان القفز على مقولة (دي بونالد) كلما بحثنا مسألة الأدب والمجتمع { الأدب تعبير عن المجتمع }، وبهذا يكون

الأدب ممثلا بصورة أو بأخرى لمجتمعه وعصره، والأدب الجيد مختلف فيه بحسب الأيديولوجيا الناظرة له، ومنذ القديم عمل الأدب على نقل صور المجتمعات التي عرض لها بالوصف والتعبير، ولسنا هنا في مجال الإجابة عن: هل الأدب صورة صادقة عن المجتمع المعبر عنه؟؛ وذلك لأن الأمر كما أسلفنا الذكر منظور إليه بحسب التواجد الاجتماعي والأيديولوجي للمجيب.

والمهم من كل هذا أننا في الحديث عن علاقة الأدب بالمجتمع نقدم دراسة عن قيمة الأدب بجعله وثيقة اجتماعية على افتراض أنه صورة للواقع الاجتماعي" كانت طبيعة الأدب في مطلع القرن الثامن عشر طبيعة اجتماعية في الجوهر"[8]، وفي هذا المعنى تقريبا يقول (توماس وارتون) : " للأدب فضيلة تخصه وهي التسجيل المخلص لسمات العصر والحفاظ على أبرز تمثيل للأخلاق وأفضل تعبير عنها "[9]، فالأدب كنز اجتماعي بفضله ندرك سيرورة الحضارة الإنسانية، من الحياة البسيطة الريفية إلى الحياة المعقدة المدنية، فالباحث والمفكر الايطالي (جيامبا تيستا فيكو 1668- 1744) طرح في كتابه (مبادئ العلم الجديد) فكرة ربط الأدب بالواقع الاجتماعي مبديا نظرية الدورات التاريخية وبأن لكل حضارة دورة حياة كاملة وربط بين الأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي فربط مثلا فن الملاحم بالمجتمعات العشائرية، والدراما بظهور المدينة، والرواية مع المطبعة والورق وانتشار التعليم، كما ربطت(مدام دي ستال 1766- 1817) بين الأدب والمجتمع من خلال كتابها (الأدب في علاقاته بالمؤسسات الاجتماعية) ،حيث ترى أن كل عمل أدبي يتغلغل في بيئة اجتماعية وجغرافية ما، حيث يؤدي وظائف محددة بها، وغير بعيد عن هذا طرح (هيبوليت تين 1828- 1893) نظريته المتعلقة بالبيئة والجنس والزمن في نشأة الأدب وتطوره، كما ربط الفكر الماركسي بين الأدب والمجتمع ربطا وثيقا من خلال العلاقة الجدلية بين البنية التحتية والفوقية منظورا للأدب منتجا من منتجات المجتمع يتعامل معه كسلعة قابلة للاستهلاك والترويج، ويرى(لوسيان غولدمان) أن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة متينة تتجاوز العلاقة الفردية القائمة بين النص الأدبي والمبدع، بل هي علاقة واعية، حيث " يرى غولدمان أن الأدب ليس إنتاجا فرديا، ولا يعامل باعتباره تعبيرا عن وجهة نظر شخصية، بل هو تعبير عن الوعي الطبقي للفئات والمجتمعات المختلفة"[10]، فالأدب في علاقته بالمجتمع يحدد لنا بدرجة واضحة حركة المجتمع وتقلباته الحضارية، فالنص الأدبي كما يراه (غولدمان) ينتج عن " بنية أشمل وأعمق هي البنية الاجتماعية للجماعة أو الطبقة التي يمثلها المبدع، ولهذا لابد من دراسة النص الأدبي للكشف عن مدى تجسيده للبنية الفكرية للطبقة أو للجماعة الاجتماعية التي يعبر عنها الكاتب"[11]، ومهما كانت الفلسفات المحددة لعلاقة الأدب بالمجتمع فإن ما يطرح من باب التساؤل: هل المجتمع يخدم الأدب بما يقدمه له من قضايا ونماذج بشرية واجتماعية ؟ أم أن الأدب يخدم المجتمع بالخوض في قضاياه ؟.

إنه ومن خلال هذين السؤالين نحاول أن نتعرف على أدب الطاهر وطار في بعديه الأيديولوجي والاجتماعي، ونسلط عليه الضوء من خلال مقاربة نقدية ذات بعد فكري على أشهر أعماله الروائية مثل اللاز، الزلزال، عرس بغل، العشق والموت في الزمن الحراشي، الشمعة والدهاليز، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الولي الطاهر يرفع كفيه بالدعاء، وهي كما نرى أعمال تقسم التجربة الروائية الوطارية إلى مرحلتين أيديولوجيتين هامتين وبارزتين في الآن ذاته؛ واحدة تغطي فترة التجريب إلى قبيل أحداث 5 أكتوبر1988م، والأخرى تغطي مرحلة التحول الروائي من فترة أحداث أكتوبر1988م إلى غاية وفاته .

نعتقد على الأقل بحسب اطلاعنا على أعمال الطاهر وطار أن أدبه تميز بارتباطه الوثيق بالحياة الاجتماعية للمواطن الجزائري بكل طبقاته وانتماءاته الأيديولوجية سياسية كانت أو دينية، ولعل اجتماعية أدب وطار في العناوين المذكورة آنفا ترتبط أكثر بالطبقات المهمشة والتي تعيش وتحيا بعيدا عن المركز المهيمن؛ فأبطال تلك الأعمال خلقوا أنموذجا متميزا – وإن كان يحاكيهم – عن أبطال الروايات العربية التقليدية والنمطية– تلك الشخصيات التي تتحرك في طبقات اجتماعية تكبلها ولا تتركها تصنع ذاتها بنفسها–، أما شخصيات الطاهر وطار فمن ناحية الدراسة الفلسفية للشخصية نجدها تتخندق في خانة الشخصية الإشكالية، وهي التي لا يمكن توقع نهايتها حتى وإن علمنا بمسار الحركة السردية للأحداث، أو حتى لو موضعنا الشخصية في فئة طبقية ما، فالطاهر وطار كان في مشروعه الروائي يبحث عن الشخصية الجزائرية ذات البعد الإنساني بغض النظر عن المشارب السياسية والثقافية والانتماءات الاجتماعية لها، كما أن الطاهر وطار لم يكن مقيدا بفلسفة الأيديولوجيا الاشتراكية حرفيا، بل كان يتخطاها ويتجاوزها إيمانا منه بأن المجتمع الجزائري في عاداته وتقاليده ومنظومته الثقافية يختلف تماما عن مجتمعات المعسكر الشرقي وخصوصا مجتمعات أوروبا الشرقية.

وبما أن الحديث عن علاقة الأدب بالمجتمع لا يمكن من خلالها الفصل بينهما ووضع الحدود، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتصور وجود أدب في معزل عن مجتمعه أو أي مجتمع آخر حتى وإن كان افتراضيا، فالأدب هو في خلاصة الأمر تعبير عن حالات المجتمع، وأن المجتمع لا يظهر بصفة منتج قابل للاستهلاك إلا من خلال الأدب الذي يقوم بتسويقه في قوالب فنية من أجناس وأشكال تعبيرية أدبية.

3– البعد الأيديولوجي في أدب الطاهر وطار :

يعد الروائي الراحل الطاهر وطار من أكثر الروائيين الجزائريين ارتباطا ووفاء لمبادئهم ومجتمعهم حيث طوال تجربته الإبداعية ظل وفيا لمقولات الواقعية الاشتراكية ولمثل العدالة الاجتماعية، فقد عمل في مشروعه الأدبي القصصي والروائي على ترسيخ تلك المبادئ والأفكار فنال نصيبه من القرب والبعد من السلطة ما لم ينله غيره في قيمته الأدبية، ولنا أن نتكئ في هذا العنصر على ما جاء في كتاب الباحثة لينة عوض المعنون ب: (تجربة الطاهر وطار الروائية بين الأيديولوجيا وجماليات الرواية) الصادر في عمان 2004م، بالاستناد إلى الواقعية الاشتراكية وتمثلات نقدها الماركسي متناغماً مع البنيوية لتحليل الأبنية الروائية في الأيديولوجية في رواياته: «رمانة» (الجزائر 1975)، و«الزلزال» و«الحوات والقصر» (الجزائر 1978)، و«العشق والموت في الزمن الحراشي» (الزائر 1980)، و«عرس بغل» (الجزائر 1982) و«تجربة في العشق» (دمشق . قبرص 1989) و«الشمعة والدهاليز» (بيروت 1996)، و«الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي» (الجزائر 1999) ونظرت في تأثر الأدلجة على فنية الرواية، على أن «الحركية الفكرية استطاعت أن تترك أثرها في البناء الفني، أي أن الحراك الفكري أوجد حراكاً فنياً مع تطور تجربة وطار»، غير أن النماذج الروائية الأولى هيمنت عليها الأيديولوجيا هيمنة مفضوحة حتى أنه غرق في أزمة الخطاب الأيديولوجي، مما أوقعه في كثير من التناقضات الفكرية، ومنها التأثير على البناء الفني الذي تحول في الكثير من المقاطع إلى الخطابية والمباشرة.

إن عملية القبض على الأبعاد الأيديولوجية في أعمال الطاهر وطار الروائية تبدو في المرة الأولى عملية سهلة ميسرة ربما بسبب تموضع الروائي في الواقعية الاشتراكية، ولكثرة الدراسات والأبحاث الأكاديمية وغير الأكاديمية حول أدب الطاهر وطار، وكذلك لعديد التصريحات والمقابلات المنشورة في الجرائد والمجلات الوطنية والدولية، لكن التعمق في كيفية معالجتها يجعل الباحث يتريث في الحكم على أيديولوجية الطاهر وطار.

نعم لقد انطلق الطاهر وطار من مواقف معينة ولكنه أصبغها بفلسفته وتجاربه ونظرته هو للحياة والمجتمع، وهذا ما جعل أيديولوجيته تختلف عن غيره من الروائيين الجزائريين الذين نهلوا من الواقعية الاشتراكية وبقوا حبيسي أطروحاتها الفلسفية والفكرية في بعدها العام لا الخاص \ خصوصية المجتمع الجزائري، فرواية الزلزال مثلا وإن كانت قضيتها العامة المعالجة تتمثل في الثورة الزراعية

ومحاربة الإقطاع، لكن القضية إيديولوجيا نراها أبعد من ذلك إنها قضية تحرير البلاد من أذيال الاستعمار ومن كل مظاهره وصوره وذلك بتقسيم الأرض بالتساوي ومنحها لمن يخدمها لتكسير مظاهر الإقطاعية التي هي رمز من رموز الاستعمار والتي حاربها إقطاعي الرواية ممثلا في شخصية(بولرواح) بكل الحيل والسبل القانونية وغير القانونية لمنع ما شرعت فيه الحكومة الجزائرية بأيديولوجيتها الجديدة " جئت أقطع الطريق بين الحكومة وبين أراضي بتسجيلها على أقاربي، شرط ألا يحوزوها أو ينالوا ثمارها إلا بعد أن أموت"[12]، والإشهار لمنجزات القيادة السياسية الجديدة المتبنية لما عرف بالثورة صناعية ممثلة في(مصنع الجرارات) كما قدمتها الرواية، حيث نقرأ هذا المقطع النصي: " معمل المحركات – حسب ما يقولون – إنجاز عظيم...الحق إنه يناسب جدا بقسنطينة العاصمة الفلاحية للشرق الجزائري "[13]، فالرواية كتبت تاريخ مرحلة محددة ومنتهية من تاريخ الجزائر الحديث، وتحولت بذلك إلى وثيقة تأريخية لمن يبحث في عالم الأيديولوجيا لتلك المرحلة الجزائرية، كتبت الرواية ببعد أيديولوجي واقعي اشتراكي ينبذ الامبريالية ويصطف مع الطبقة الكادحة، ولكنها لم تقف عند حدود هذا الطرح الأيديولوجي بل ذيلته بنظرة وفلسفة وطارية خالصة ترى أن الاستقلال الوطني لم يتحقق بخروج الجيش الفرنسي مادام هناك منظومة إقطاعية تسود البلد، إنها منظومة قوامها تمركز الأراضي الفلاحية بيد فئة قليلة تتصرف في أرزاق العامة من المجتمع، كما أن الخروج من التبعية الاقتصادية ودخول دائرة التنمية يكون بالتوجه للمجال التصنيعي جنبا لجنب مع المجال الفلاحي.

وفي رواية اللاز يعكف الطاهر وطار على تقديم أيديولوجيته في فهم الثورة التحريرية مقدما مشروعا في أن من يقوم بالثورة ليس فقط الشرفاء ولا المعلومي النسب، أو الأسياد أو المثقفين والسياسيين، بل يقوم بها كذلك عامة الناس حتى أولئك المنبوذين اجتماعيا ومثل لهؤلاء بالبطل (زيدان)، وهنا نشتم رائحة الاشتراكية التي تسوي بين الناس وترفض فكرة الطبقية والتمايز الاجتماعي، فاللاز الابن غير الشرعي ومجهول النسب، وهو رمز لفئة لا يمكن إنكارها أو تجاوزها في المجتمع صنعت استقلال الجزائر بل وكانت وطنية أكثر من أولئك الذين يسخرون منه، هذا الطرح الأيديولوجي المنحاز للطبقات المهمشة والمنبوذة هو محاولة لرفع تلك النظرة المقدسة والمأسطرة للثورة والثوار، ولتصحيح النظر حول تلك الفئات المهمشة التي لا ذنب لها في قدرها، وهنا نرى التشبع بالأيديولوجيا الاشتراكية لدى الطاهر وطار التي تساوي بين كل فئات المجتمع،ولا تحتكم في التقديم والتأخير الاجتماعي إلا للعمل المفيد الذي يقدمه الفرد للمجتمع .

ومهما قيل عن روايات الطاهر وطار المؤدلجة إلا أننا نكتشف في كل مرة نعيد قراءة تلك الأعمال أن الأيديولوجيا عنده تتطور وتتغير لتأخذ عنده فهما مغايرا لمن يتبنونها، ففي المراحل الأولى راهن على أيديولوجيا الواقعية الاشتراكية المتنبئة بحلول نماذج أرقى وأفضل من النماذج السائدة، والتي هي نماذج طبقية – الزلزال، اللاز، العشق والموت في الزمن الحراشي، عرس بغل– لكن الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي للمجتمع الجزائري خيب ظن وآمال وتوقعات الطاهر وطار، فكان في كل مشروع روائي يعيد النظر في تلك الأيديولوجيا ويطهرها من غلوها الفكري والفلسفي ومن ارتباطاتها بغير المجتمع الجزائري، وبالفعل يمكن القول: إنه في الروايات الأخيرة – الشمعة والدهاليز، الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، الولي الطاهر يرفع كفيه بالدعاء، وقصيد في التذلل – استطاع أن يقدم مشروعا روائيا بإيديولوجيا بنكهة المجتمع الجزائري، فيظهر فيها أكثر فهما وقربا لواقع الشعب الجزائري، يبدو فيها أنه ينجز مشروعه الروائي من فلسفة الواقع المعيش لا فلسفة الكتب والمقولات النظرية.

في المشروع الروائي الأول (المرحلة الأولى مرحلة إلى قبيل أحداث أكتوبر 1988م) بدا والطاهر وطار كأنه أراد تطويع المجتمع لتلك الأيديولوجيا الغربية، لكنه في المشروع الروائي الثاني (المرحلة الثانية مرحلة ما بعد أحداث أكتوبر 1988م) بدا أنه طوع الأيديولوجيا للمجتمع، وحسب اعتقادنا هذا هو المطلوب من الأديب إذا أراد أن يؤدلج أعماله الأدبية ليحقق بذلك نجاحا ببعدين واحد تاريخي على اعتبار النصوص الأدبية وثيقة تاريخية شاهدة على أيديولوجيا ما، والثاني فني من خلال التحكم في العملية السردية وفق مقتضياتها الجمالية والتشكيلية .

إن روايات الطاهر وطار في بعدها الأيديولوجي ركزت على المظاهر التالية:

1) قضايا الأيديولوجيا : وقد حاول الطاهر وطار إبرازها بقوة ولو على حساب البعد الجمالي والفني، وهذا خاصة ما نلمسه عندما نجري دراسة على روايات المرحلة الأولى والتي تغطي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، أما روايات المرحلة الثانية والتي تغطي مرحلة التحول السياسي والاجتماعي في الجزائر ما بعد أحداث أكتوبر 1988 فإننا لاحظنا خفوت النزعة الأيديولوجية المثالية وبدايات تحولها إلى أيديولوجيا خاصة بالطاهر وطار إن صح القول.
2) حضور الثورة التحريرية من مشروع تحرري استقلالي إلى مشروع تحرري اجتماعي ببعد أيديولوجي بفلسفة وروح الواقعية الاشتراكية.
3) إسناد دور البطولة إلى شخصيات عادية في المجتمع أو من مثقفي البرجوازية الصغيرة المناهضة للإقطاعية، أي بالتركيز على المهمشين .

إن الأيديولوجيا في روايات الطاهر وطار تتجلى في الأنا الساردة المتماهية في شخصيات الروايات كما يقرر ذلك (ميخائيل باختين) في قوله: " المتكلم في الرواية دائما وبدرجات مختلفة منتج أيديولوجيا ، وكلماته دائما هي عينة أيديولوجية "[14]، والأيديولوجيا في أدب الطاهر وطار مكتسبة بالانتماء إليها، وهذا ما جعل أعماله أكثر وضوحا من حيث الأيديولوجيا الاشتراكية الموظفة في رواياته فكرا وفلسفة ومبدأ، ومن بعد كل ذلك أدبا وفنا، وحول مسألة علاقة الأديب بالأيديولوجيا وكيفية حصولها نقرأ قولا (لإيجلتون) هذا نصه " ... قد يتصل المؤلف بإيديولوجيته العامة المعاصرة بمقتضى انتسابه إلى أيديولوجية عامة سابقة تاريخيا على عصره، أو إلى أيديولوجية عامة من المفترض تحققها في المستقبل، كما هو الأمر في حالة المؤلف الثوري"[15]، والملاحظ على المسار للطاهر وطار أنه حقق المطلبين معا، فقد اعتنق الأيديولوجية الاشتراكية التي وجدت قبل مولده، واعتنق الأيديولوجية الاشتراكية الثورية بالمنظور العربي والجزائري القائم على خصوصيات فردية تميزه عن بقية الأمم الغربية والعربية.

إن الكشف عن الأيديولوجيا داخل النص الروائي الوطاري لا يعرف إلا من خلال القراءة الفاحصة والقراءة الناقدة التي تشتغل عموما على ما يسمى بالنقد الأيديولوجي، وبما ان النص الأدبي ليس بالضرورة تعبيرا عن الأيديولوجيا والعكس كذلك، وإنما هو " إنتاج محدد لأيديولوجية"[16]، وهذه المسألة تتضح أكثر حسب إيجلتون في النصوص الدرامية التي يراها الأقدر على تحقيق المعادلة المتمثلة في استقلالية الأدب والأيديولوجية عن بعضهما داخل العمل الفني الأدبي سواء نثرا كان أم شعرا، ونقف في رواية اللاز على نماذج عديدة من الوعي الأيديولوجي الذي أطهره الطاهر وطار على لسان شخصياته وفي

سلوكياتهم، وعي يبدو في ظاهره ساذجا وبسيطا وعاديا، ولكنها العبقرية الوطارية التي تجعل من أعقد الأشياء واضحة وفي المتناول " حمو يرى أن الوضع الذي أصبح عليه الناس من فقر وبؤس وعري وجهل ومرض وجهل وجور، يجبرهم على العمل من أجل التخلص منه، وهذا العمل ليس سوى الثورة ليس سوى التمرد على الأسياد، على كل شيء، على هؤلاء الأسياد الذين – كما بقول أخوه زيدان– لم يفهموا ولا يريدون أن يفهموا إلا أمرا واحدا هو مصلحتهم... مصلحتهم التي تتعارض مع مصالح جميع الناس"[17]، ونقرأ كذلك " الثورة تحول الإنسان، وما دامت عميقة فإن التحول يحدث بسرعة،يجب أن يتحول قدور إلى مناضل ثوري، متطهر من العقد والرواسب، يجب أن يرتفع ويرتفع إلى أن يصل إلى مستوى الثورة "[18]، هذه الأيديولوجيا الثورية الرافضة للظلم والفقر والقهر، وهي مصطلحات وقضايا ارتبطت بالأيديولوجيا الاشتراكية الثورية، قدمها وطار في سياق أدبي على لسان واحد من أبطاله الثوريين(حمو)، وهنا يتبادر إلى أذهاننا أنموذج البطل الثوري والإشكالي الذي علقت عليه تلك الأيديولوجيا آمالها ورهنت به أعمالها ومنجزاتها.

4– البعد الاجتماعي في أدب الطاهر وطار:

لا يمكن الحديث عن الأيديولوجيا في الأدب ولا نتحدث عن الطابع الاجتماعي له، فأحيانا تبدو المسألة جد معقدة ومرتبطة ببعضها البعض، فكلما تفوهنا بكلمة أيديولوجيا إلا وقفزت إلى أذهاننا الأبعاد الاجتماعية، أبعاد متنوعة ومتعددة أهمها الصراع الطبقي، الحداثة والتراث، جيل الآباء وجيل الأبناء، الريف والمدينة، العدالة الاجتماعية ...الخ.

هذه بعض الأبعاد الاجتماعية التي كان عليها مدار الرواية الجزائرية عموما والوطارية على وجه الخصوص ، إنها أبعاد مثلت بالنسبة إليه مشروع مجتمع يأمل في أن يراه يوما موجودا بالفعل لا بالقول ، هذا المجتمع الذي بناه الطاهر وطار في رواياته وقصصه على أنقاض تلك المجتمعات المغلقة والضيقة والتي تنجذب للماضي انجذاب الفراش للنور أكثر من انجذابه للحاضر أو المستقبل، فالطاهر وطار في رواياته الأولى يمكن أن نصفه بالمتحمس للمشروع الأيديولوجي الذي تبناه وعمل على الترويج له فنيا وقد اشتغل في ذلك على أبعاد اجتماعية هي من صميم المجتمع الجزائري ، ذلك المجتمع الخارج لتوه من غبن استعماري مرير، فمشكلة الفقر، والطبقية بين أفراد المجتمع، والتفاضل بين أهل المدينة وأهل الريف، والصراع الثقافي بين المعربين والمتفرنسين ، وأحقية الطبقات الكادحة بالانتماء للثورة والدفاع عن حقها في الوجود في ظل دولة القانون والاستقلال جعل الطاهر وطار يتحمس لهذه الأبعاد ويطرحها في مشروعه الروائي كنوع من النموذج الاجتماعي المرجو تحقيقه لبناء دولة جديدة بعيدة كل البعد عن الأبعاد الاجتماعية الموروثة عن المجتمعات التقليدية والكولنيالية القائمة على أ بعاد اجتماعية ذات أيديولوجيات تسحب المجتمع للوراء عوض أن تدفع به للأمام.

ففي رواية الزلزال مثلا نجد البطل عبد المجيد بولرواح المنتمي إلى طبقة الإقطاعيين بأيديولوجيا رأسمالية ليبرالية تؤمن بالفردانية على حساب الجماعة تعمل جاهدة على تخطي مشروع تأميم الأراضي الزراعية لسنة 1971 من خلال الاحتيال في توزيع أراضيه على أقاربه الذين بالأمس القريب كان يتأفف منهم ، بل ويتجه إلى الجانب الديني لتبرير معارضته ورفضه للأمر من خلال فتاوى تقول بكفر الاشتراكية وإلحاد الشيوعية ، فمن خلال تنامي الأحداث وتطورها يتضح لنا أن الزلزال رواية جمعت بين البعدين الأيديولوجي والاجتماعي وللكشف عنهما قدمهما الطاهر وطار في بنية فكرية نسقية متعارضة ومتناقضة ، التعارض والتناقض سهلا علينا الغوص في البنية الداخلية – النفسية – لبلرواح الذي يقف عقبة كأداء في وجه الأيديولوجيا الجديدة الحاملة للتغيير ،

وبفضل تلك التناقضات الأيديولوجية والاجتماعية للرواية تشكل عالم الزلزال التخييلي والذي كان في نهاية المطاف أداة بيد الطاهر وطار للتعبير عن أيديولوجيته ونظرته الاجتماعية لواقع الجزائر في تلك المرحلة التاريخية، ولنصغي إليه وهو يتحدث في مقدمة اللاز عن انخراطه في مرحلة البناء التي باشرتها الدولة بعد الاستقلال " طيلة السنوات السبع 1965 – 1972 التي استغرقتها كتابة هذه القصة المتقطعة من شهر لآخر كان يطغى علي الشعور بالذنب إن بلادي تسير إلى الأمام بخطى عملاقة، المدارس تنبت من الأرض نباتا والمعاهد تتطاول في المدن والقرى تطاولا، والمعامل تثقل بآلاتها أرضنا شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، والإنسان في كل ذلك يتطور وأنا مشدود إلى هذه القصة أتفرج عن الماضي، ولا أساهم في المعركة الحاضرة "[19].

كما وجدنا في العشق والموت في الزمن الحراشي تكملة لمشروع 1971 المتعلق بالثورة الزراعية وكيف يعمل طلبة الجامعات وخاصة الطالبات على إنجاح المشروع بالتجند للعمل في الحملات التطوعية لتسجل بذلك الرواية مشاركة فئة المثقفين وانخراطهم ولو نسبيا في الأيديولوجيا الجديدة – الاشتراكية – ولا يهم نجاح التجربة أم فشلها بالنسبة للنقد الأدبي بقدر ما يهمه تفاعل الروائي مع الطرح الأيديولوجي والعمل على التسويق له اجتماعيا دافعا بذلك بطبقة مهمة– الطلبة الجامعيين – في المجتمع الجزائري الحديث والمعول عليه من قبل النظام السياسي آنذاك في حمل لواء التوجه الجديد ، كما نسجل ربط الطاهر وطار للتجربة ببعدها العالمي ، فكما هو معلوم أن الطبقة المثقفة هي التي حملت لواء الاشتراكية وانبرت للدفاع عن قضايا ومصالح الفئات المحرومة والمهمشة في المجتمع .

ويمكن عد الرواية في بعدها الأيديولوجي تنقل تعارض أيديولوجيتين واحدة رأسمالية تفتقر للعلم والمعرفة وتستند في وجودها على جذورها التاريخية أو المالية أو السلطوية مثلها بولرواح الذي فشل في الانتحار في اللاز فأمل معارضته للأيديولوجيا الجديدة الحاملة للتغيير والقائمة على المشروعية الشعبية _ التواصل والامتداد الاجتماعي – والعلم والمعرفة ممثلة في الفئات المثقفة .

وهذه نظرة سريعة على البعدين الأيديولوجي والاجتماعي في روايتي الطاهر وطار باعتبارهما يمثلان المرحلة الأولى للتجربة الروائية وفق هذا المنظور ، أما المرحلة الثانية فحددناها بالروايات التي ظهرت في مرحلة التعددية السياسية وما بعد أحداث أكتوبر 1988، وحصرنا مقاربتنا على آخر إصداراته الروائية ممثلة في رواية الشمعة والدهاليز، ورواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ورواية الولي الطاهر يرفع كفيه بالدعاء، وهي أعمال روائية نراها وفق المقاربة النقدية التي اعتمدناها تحقق مشروع الدراسة في البعدين الأيديولوجي والاجتماعي، فمن الناحية الأيديولوجية سبق القول وأننا ربطنا تطور المشروع الروائي للطاهر وطار بتطور فهمه للواقعية الاشتراكية، وأن الأيديولوجيا التي يتبناها في بعدها العام وإطارها الفلسفي لا تمنعه من بلورتها وقولبتها بما يتماشى وخصوصيات المجتمع الجزائري ، وبخاصة بعدما عاش خيبات الأيديولوجيا في مثاليتها الفلسفية في المرحلة الأولى من بناء الدولة الجزائرية المستقلة فكتب نصوصا روائية وقصصية ومسرحية منتهية محطاتها الأخيرة بالفشل وعدم الرضى على ما تم انجازه باسم تلك الأيديولوجيا سواء من قبل السلطة السياسية أو المجتمع .

فالبعد الأيديولوجي في المرحلة الثانية تخلص من تلك النزعة الشوفينية والمثالية ليصنع بعده وفق السلوكيات والممارسات اليومية للمجتمع الجزائري بمختلف أطيافه الثقافية والسياسية والأيديولوجية والطبقية ، كما أن البعد الاجتماعي في تلك الرواية بين لنا التحولات الاجتماعية التي مر بها المجتمع الجزائري وبخاصة بعد أكتوبر 1988 ، ولما كان ارتباط الرواية بالحياة الاجتماعية الجزائرية وبالتاريخ الوطني برزت الواقعية بفرعيها الواقعية الاشتراكية والواقعية النقدية التي ترى أوظيفة الفن والأدب تتمثل في " نقد

الحياة الإنسانية وفق مفهوم إنساني واسع لا يرتبط بالمفهوم الماركسي ، ولذا فإن الحكم على أدبية النصوص الأدبية ينطلق من مدى ارتباطها بالواقع تصورا ونقدا "[20].

وفق هذا المفهوم اشتغل الطاهر وطار على رواياته المنشورة ومنها على الخصوص التي غطت المرحلة الثانية من تجربته الروائية ، ففتحت مثلا رواية الشمعة والدهاليز قضايا للصراع الأيديولوجي في بعده السلبي الذي يدفع بالمجتمع إلى التآكل عوض الدفع به نحو التطور كما تقول بذلك الجدلية التاريخية ، حيث يهمين الجانب الإقصائي للآخر من كل المجالات والميادين حتى وإن توصل المر إلى القتل، وبخاصة عندما يغتال المجتمع في عقله في مثقفيه – محنة الشاعر الطاهر سبتي – الذي على مداره الحزين كتبت الرواية ،رواية كتبت على عجل لتسارع مصاحبة التحولات الاجتماعية داخل الجزائر في عشرية التسعينيات ، وفي الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي وإن كانت عند الكثير من النقاد الجزء الثاني للشمعة والدهاليز فإنها تقوم كذلك على طرح مخالف للطرح الرسمي – النظام – في فهمه لأزمة الجزائر ، إنه طرح الآخر المتواري في جبال الجزائر ممثلا عن تلك الفئة في المثقف كذلك – الشاعر عيسى لحيلح – وفي تبريره لما أقدم عليه ، إن أيديولوجية الطاهر وطار المتناغمة مع الإنسان الجزائري جعلته في هذه الرواية يقف مثل القاضي لا يحكم لخصم على آخر حتى يستمع للطرفين ، وحتى في الشمعة والدهاليز نجد أن الطاهر وطار عمل على عدم الانتقاص أو رفض الأيديولوجيات التي لا تتماشى وأيديولوجيته ، وراح يطعم رواياته بالنزعة الاجتماعية الواقعية للشعب الجزائري في محنته ، عارضا صورا من الحياة الاجتماعية للناس في المدن والأرياف والجبال بين نزعتي الخوف والحذر ، فالكل مستهدف ولا أحد يدري من أين يأتيه الخطر ، إنها الحياة الاجتماعية الجديدة القلقة التي غيرت سلوكيات الفرد الجزائري ، إنها الحياة الاجتماعية الجديدة التي سوف تخلق معها أفكارا جديدة ونظرة مغايرة للحياة لما كان قبل المحنة ، وقد أعد تلك الروايات بمثل نقد وجلد الذات – الجزائرية – المترنحة ما بين الحياة والموت ، اليأس والأمل ، الحرية والسجن ، المباح والمحظور ...الخ كل هذه المعاني نبعت من طبقات اجتماعية آمنت بها وعملت على إحلالها محل الأخرى ، وهذه المظاهر الاجتماعية نقلها الطاهر وطار في مواقع من رواية الشمعة والدهاليز والولي الطاهر يرفع كفيه بالدعاء أحيانا بصورة فوتوغرافية تريد التسجيل التوثيقي للراهن الجزائري غير متناسي وظيفته الفنية وخبرته في معالجة مثل هذه القضايا " ... إن الخبرة المتبادلة والتشابك الدائم والتفاعل الحي بين الشخصيات والواقع الاجتماعي والمعاناة السياسية هي التي تشكل الظاهرة الواضحة لحركة بناء الرواية ونموها وتطورها "[21]، ولأن الحركية الاجتماعية في روايات الطاهر وطار متأتية من امتلاكه للراهن وتحركه في دائرة الواقع الجزائري، واقع عايشه وطار منذ حرب التحرير إلى الاستقلال بكل تقلباته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية " إن هدف العمل الفني ينبثق من العمل الفني نفسه والتصوير الصادق للعلاقات الاجتماعية في الرواية هو الذي يشير إلى الهدف الذي تتضمنه الرواية ؛ لأن التصوير الصادق للحركة الاجتماعية هو رؤية للحركة الإنسانية في اتجاه حركتها "[22]، وبهذا تتحول أعمال وطار الروائية في بعدها الاجتماعي بمثابة طائر الفنيق تتجدد كلما ارتقت من سلم الأيديولوجيا إلى سلم الواقع الاجتماعي معبرة عن الأفكار والصور والمواقف التي تشخص حالات عامة أو خاصة داخل المجتمع متحررة من القيود الكابحة لأبجديات النزعة الفنية .

لقد ربط الطاهر وطار رواياته بالواقع الاجتماعي الجزائري مصورا إياه في أحلك وأبهى مراحله التي مر بها من الثورة التحريرية إلى الاستقلال وما أعقبه من تحولات عميقة، كانت واقعية وطار تنحت من صخر واقع الجزائريين، واقعية تتغلغل حتى في ضمائرهم لتخرج لنا سرائرهم وهواجسهم " كان الربيعي مثل كل سكان القرية يبغض اللاز ويتمنى من صميم قلبه أن تلحقه المصيبة القاضية،

يرتكب جريمة لن يخرج بعدها من السجن، أو يقضى عليه من طرف العسكر أو من طرف الثورة"[23]، ومنه كذلك قوله: " نحن لا شيء يربطنا بالماضي وأنتم لا شيء يدفعكم إلى المستقبل، ولم يبق بيننا إلا رابط واحد هو الحاضر، هذا الحاضر الذي أتعاون وأخي زيدان وكل الفقراء على صنعه"[24]، واقعية اجتماعية تهتم بالمهمشين من المجتمع وتتجه بهم نحو سطح الحياة لتبزغ عليهم شمس العدالة الاجتماعية ، أولئك الناس – المهمشون – الذين لا ينعدم منهم أي مجتمع ولكنهم قلما ينتبه إليهم من أوتوا سلطة الكلمة، إن علاقة الرواية الوطارية بالواقع الجزائرية نراه انتظاما وانحيازا ووفاء للأيديولوجيا التي آمن بها ودعا إليها ليس قولا أدبيا فقط بل وحتى عملا في حياته الواقعية.

5– الخاتمة:

من خلال هذه الجولة المقتضبة في العالم الروائي للراحل الطاهر وطار يتبين لنا أن الرجل كان يعمل في مشروعه الروائي منذ البداية وحتى المنتهى على تقديم مشروع مجتمع ليس بالضرورة مطابقا بالحرفية لمشروع الساسة، ولكنه يتقاطع معهم في الكثير من الجوانب المتعلقة بالمنهج الاشتراكي أيديولوجية والواقعية الاشتراكية إبداعا، كما لاحظنا أن المشروع الروائي يقف على ضفتي مرحلة تاريخية من تاريخ الجزائر الحديثة، الضفة الأولى وقفت بنا عند بدايات التجربة الإبداعية عند وطار من بعد الاستقلال مباشرة إلى حدود 1988م، وفيها طغت النزعة الأيديولوجية للطاهر وطار على النزعة الفنية للعمل الروائي، وفيها ظهرت أعمال الطاهر وطار بواقعيتها واجتماعيتها تحفر عميقا في قضايا المجتمع الجزائري حديث العهد بالاستقلال، والذي يأمل أن يعوض بمشاريعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ما خلفه المستعمر الفرنسي والطاهر وطار بتلك الروايات حاول أن يساير تلك السياسات وفق نظرته وأيديولوجيته التي آمن بها والتي يرها القادرة على تحقيق العدالة الاجتماعية، ولكن صخرة الواقع وتقلبات السياسة والأيديولوجيا أظهرت للطاهر وطار تناقض تلك الأحلام وواقع الناس وواقع المؤسسة الرسمية الساهرة على تسطير خطوط النظام الاجتماعي والمعيشي للناس، وهذه المفارقة المخلفة لنوع من الصدمة الفنية للطاهر وطار جعلته ينتقل في تجربته الروائية إلى الضفة الثانية والتي وقفت بالمشروع ما بعد 1988 والتحول السياسي في الجزائر إلى يوم رحيله وفيها نضج المشروع الروائي لوطار وانتقل من هيمنة الأيديولوجيا إلى التوافق بينها وبين الجانب الفني ، وفي هذه الضفة اجتهد الطاهر وطار على أن يكون قريبا أكثر من روح المجتمع لا من أحلامه كما كان الأمر في المحطة الأولى.

إن الطاهر وطار وهو يغوص في واقع جزائر ما بعد أحداث أكتوبر، وتقربا شديدا من عمق جزائر أحداث الفتنة والمأساة الوطنية، يجتهد روائيا على أن يؤسس لخطاب أدبي لا تكبله الأيديولوجيا ولا تبتذله الأحلام، خطاب روائي يجعل من الأيديولوجيا نقطة مراجعة وتقويم وتقييم للمراحل السابقة وللمنجزات الأدبية في حلقتها التاريخية، ولقد ظل (وطار) وفيا لأيديولوجيته التي آمن بها وبخط ونمط كتابته الروائية ليقينه بأن ذلك هو السبيل الناجع والناجح لتحقيق أهداف الثورة والشعب، وليفينه بأن الكتابة وفق ذلك التيار الواقعي الاشتراكي هي الوحيدة التي تسمح له بالتحرك بكل حرية بين سرائر شخصياته وأزمنة وأمكنة أحداث رواياته : من هنا تظهر القوة اللامحدودة للتعبير في الواقعية الاشتراكية، التي تتيح لكل النماذج البشرية التعبير عن موقفها ووعيها وحالتها من خلال واقعها الطبقي المعيش "[25]، ونختم ورقتنا البحثية هذه بقول للناقد المغربي محمد معتصم حول الطاهر وطار:ا لطاهر وطار لبنة أساسية في مدونة السرد الجزائري والعربي المعاصر والحديث ، تعتبر أعماله الإبداعية حقلا غنيا لفهم المرحلة سواء من حيث

التعرف على القضايا الفكرية والسياسية العربية وقد زامنها وكان حاضرا فيها وكانت حاضرة في متخيله وكتاباته أو من حيث القضايا الإبداعية والأدبية"، ومع كل ما أنجزه الروائي الراحل الطاهر وطار حول الجزائر مجتمعا وأرضا، سياسة واقتصادا واجتماعا وتاريخا، فهو يعترف أنه ليس مؤرخا وإنما أديبا يكتب التاريخ من فلسفته ورؤيته الخاصتين الصادرتين من مشكاة أيديولوجيته التي اعتنقها ومارسها سلوكا روائيا " ... إنني لست مؤرخا و لا يعني أبدا أني أقدمت على عمل يمد بصلة كبيرة إلى التاريخ، رغم أن بعض الأحداث المروية وقعت أو وقع ما يشبهها، إنني قصاصا وقفت في زاوية معينة لألقي نظرة بوسيلتي الخاصة على حقبة من حقب ثورتنا "[(26)]، هي ذي فلسفة الطاهر وطار في تعامله مع أحداث ووقائع أعماله الأدبية، وهذا في الأصل هو المطلوب من المبدع أن ينجز النص الأدبي بعيدا عن المطابقة والمشاكلة للنص التاريخي أو للواقع المعيش بحرفيته.

الهوامش والإحالات:

[1] – تيري إيجلتون: النقد والأيديولوجية، ترجمة فخري صالح،المؤسسة العربية للدراسات،عمان،ط1 ،1992، ص:14

[2] – تيري إيجلتون: المرجع نفسه، ص ن

[3] – المرجع نفسه، ص:10

[4] – تيري إيجلتون: النقد والأيديولوجية، ص:11

[5] - Angles : Marcocsim and Litrary.university of California press,1976.P34

[6] -ibid.P24

[7] -ibid.P26

[8] – دافيد ديتشيز: الأدب والمجتمع،ترجمة عارف حريفة،منشورات وزارة الثقافة السورية،دمشق،ط1، 1987،ص:127

[9] – المرجع نفسه، ص:216

[10] – آزاده منتظري: ومحمد خاقاني،ومنصوره زركوب: النقد الاجتماعي للدب نشأته وتطوره، إضاءات نقدية ، مجلة فصلية محكمة سوريا،العدد6،حزيران 2012، ص:168

[11] – المرجع نفسه، ص ن.

[12]– الطاهر وطار: الزلزال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1974، ص:132

[13] – المصدر نفسه، ص ن

[14]– ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة،دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط2، 1987م، ص:102

[15] – تيري إيجلتون : النقد والأيديولوجية، ص:76

16– المرجع نفسه، ص:84

17– الطاهر وطار: اللاز، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية(موفم)، الجزائر،2007، ص: 41

18– المصدر نفسه، ص:49

19–الطاهر وطار: اللاز، المقدمة

20 – علال سنقوقة: المتخيل والسلطة – في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية–، منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1 ،2000، ص: 24

21 – سيد حامد النساج: أدب التحدي السياسي في المغرب العربي، الدار البيضاء، د ت، د ط، ص:194

22 – محمد كامل الخطيب: الرواية والواقع، بيروت، د ط، 1981، ص:17

[23]– الطاهر وطار: اللاز،ص:9

24– المصدر نفسه، ص:42

25- واسيني الأعرج:الطاهر وطار وتجربة الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1989، ص:49

26 - الطاهر وطار: اللاز، ص:

مصادر و مراجع الدراسة:

أ/ المصادر:

1- الطاهر وطار: الزلزال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1974م.

2- الطاهر وطار: اللاز، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية- موفم- الجزائر، 2007م.

ب/ المراجع:

1- - آزاده منتظري، ومحمد خاقاني،ومنصوره زركوب: النقد الاجتماعي للأدب نشأته وتطوره، إضاءات نقدية ، مجلة فصلية محكمة سوريا،العدد6،حزيران 2012م.

2- تيري إيجلتون: النقد والأيديولوجية، ترجمة فخري صالح،المؤسسة العربية للدراسات،عمان،ط1 ، 1992م .

3- دافيد ديتشيز: الأدب والمجتمع،ترجمة عارف حريفة،منشورات وزارة الثقافة السورية،دمشق،ط1، 1987م.

4- سيد حامد النساج ، أدب التحدي السياسي في المغرب العربي، د ت، د ط.

5- علال سنقوقة ، المتخيل والسلطة – في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية، منشورات الاختلاف،الجزائر، ط1، 2000م.

6- محمد كامل الخطيب، الرواية والواقع، بيروت، د ط، 1981م.

7- ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الأمان للنشر والتوزيع،الرباط، المملكة المغربية، ط1987،2م.

8- واسيني الأعرج:الطاهر وطار وتجربة الكتابة الواقعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1989م.

9- Angles : Marcocsim and Litrary.university of California press,1976.